الدور الصليبي لهيئة الداوية في معركة حطين في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي (1119-1193م)

بقلم
د/ عاشوري قمعون
قسم التاريخ ـ معهد العلوم الاجتماعية والإنسانية
المركز الجامعي بالوادي ـ الجزائر



ملخص

تأسست هيئة الداوية في بلاد الشام عام 1119م، وذلك للدفاع عن الحجاج المسيحيين القادمين من غرب أوربا لزيارة القبر المقدس بفلسطين، وحمايتهم مما كانوا يتعرضون له من مخاطر السلب والنهب على يد الأتراك السلاجقة. وقد تأكد أن هذه الهيئة كانت جديرة بأن تتبوأ طلائع الصفوف الصليبية الأولى في مواجهة المسلمين. وأنه لولا ما قام به أولئك الفرسان من جهود حربية، لانتهى أجل الكيان الصليبي بالشام قبل نهاية القرن 13م بمدة طويلة.

Résumé:

L'Ordre des Chevaliers du Temple a été créé au Levant en 1119, pour défendre les pèlerins chrétiens en provenance de l'Europe occidentale pour visiter la tombe de Saint-Sépulcre en Terre Sainte à la Palestine, et de les protéger au risque de Pillage de la part des Turcs Seldjoukides. Il a été confirmé que cet organisme mérite la première place dans les rangs des Croisés à se battre contre les Musulmans. Et ce n'était pas pour ce qu'il avait fait de ces chevaliers des efforts militaires, afin de mettre fin aux Croisés avant la fin du XIII ème siècle.

مقدّمة

يتناول موضوع بحثي تاريخ هيئة من الهيئات العسكرية الدينية التي ظهرت عام 1119م في بلاد الشام، وكان مؤسسها فارسا فرنسيا يدعى هوغو دي باينز Hugo de Payns [(1)]

لعبت هذه الهيئة دورا بارزا في الحركة الصليبية الشاملة التي ظهرت في العصور الوسطى، وقد ساعد قيامها على بقاء الحكم الصليبي في بلاد الشام لفترة أطول. والإشكال المطروح: ما هي هذه الهيئة ؟ وما الدور الذي قامت به، حتى اكتسبت هذه المكانة المرموقة التي جعلت السلطان صلاح الدين الأيوبي يلجأ إلى تنفيذ حكم الإعدام في كل من أسر لديه من أفرادها ؟.

1 ـ تأسيس هيئة الداوية:

سقطت مدينة بيت المقدس في يد الصليبيين يوم الجمعة 23 شعبان عام 492 م /15 جويلية 1099م، على عهد الخليفة الفاطمي المستعلي بالله (487 ـ 495هـ/1094 ـ 1101م). وبدأت وفود الحجاج تتدفق على هذه المدينة المقدسة من جديد، كما كان عليه الحال قبل وقوعها تحت سيطرة المتغلبين من الأتراك السلاجقة. ومما كان يثير اهتمام الصليبيين وقتذاك، قلة الأمن في الطرق المؤدية إلى بيت المقدس،[(2)] ولكن لم تلبث أن تأسست بعض الهيئات العسكرية التي أخذت على عاتقها القيام بحماية الحجاج، ومد يد المساعدة لهم اجتماعيا واقتصاديا، وحراسة الطرق التي كان عليهم اجتيازها لزيارة مختلف الأماكن المقدسة المسيحية بفلسطين.على أن هذه الهيئات سرعان ما جعلت وظيفتها الرئيسية ـ إلى جانب الاحتفاظ بوظيفتها الأولى التي تأسست من أجلها ـ محاربة المسلمين جنبا إلى جنب مع سائر القوى الصليبية الأخرى. وأصبحت مع الزمن، هي الضامن الحقيقي لحماية الكيان الصليبي كله ببلاد الشام، مستعينة في ذلك بما كانت تملكه من أموال طائلة، آلت إليها عن طريق الهبات، ومن قلاع وحصون تنازل عنها لهذه الهيئات، الأمراء الصليبيون تسهيلا لها في أداء مهماتها الحربية.[(3)]

وكانت هيئة فرسان المعبد L'Ordre des Chevaliers du Temple أوLes Templiers التي عرفها المؤرخون المسلمون باسم هيئة الداوية،[(4)] في مقدمة هذه الهيئات

العسكرية. ويقول وليم أسقف مدينة صور،[5] فيما يتعلق بتأسيس هيئة الداوية، بأنه قد تقدم إلى بطريرك بيت المقدس في عام 1118 ـ 1119م، عدد من الفرسان، أعلنوا له بأنهم نذروا أنفسهم لخدمة العقيدة، وفق قانون الرهبان العام، الذي يتطلب منهم العفة والطاعة والفقر. وكان يرأس هؤلاء الفرسان هوغو دي باينز وجفري دي سانت أومير. Geoffrey de Saint Omer ولما لم تكن لهم كنيسة يؤدون فيها الصلاة، أو دار يجتمعون فيها، فقد سمح لهم ملك بيت المقدس بولدوين الثاني(1118 ـ 1131م) Baudouin II بالإقامة المؤقتة في القصر المقام على الجانب الغربي من المعبد، (يقصد معبد النبي سليمان بن داود الذي يعتقد البعض بأن جدار البراق، الواقع إلى الغرب من المسجد الأقصى أحد أنقاضه) ومنحهم الساحة الواسعة المحيطة بهذا القصر، لإقامة مبانيهم الرئيسية فيها. كما منحهم كل من الملك وبطريرك بيت المقدس والنبلاء والأساقفة، عقارات وأراضي شاسعة من أملاكهم الخاصة في المدينة، لمساعدتهم في تأدية وظيفتهم التي أمرهم بها البطريرك والأساقفة، وهي حماية الطرق والحجاج ضد غارات المغيرين واعتداءات المعتدين.[6] ويواصل أسقف صور كلامه عن هذا الحدث قائلا: بأن أعضاء هذه الهيئة ظلوا يلبسون طوال السنوات التسع الأولى، منذ تأسيس هيئتهم، الملابس المدنية العادية التي كان يتصدق بها عليهم المتصدقون. ولكن في السنة التاسعة ـ أي عام 1128م ـ عقد في مدينة تروي Troyes بجنوب فرنسا، مؤتمر ديني حضره كبار رجال الدين الكاثوليك في ذلك البلد الأوربي، وعلى رأسهم رئيس أساقفة رينزReins، ورئيس أساقفة سانس Sens، والكاردينال أسقف ألبانو Albano ـ نائبا بابويا ـ ورؤساء أديرة سيتو Citeaux وكليرفو، Clairvaux وبونتيني Pontigny وغيرهم. وفي هذا المؤتمر، وضع للهيئة قانونها،[7] وتقرر بإرشاد البابا هونوريوس الثاني ـ (1124 ـ 1130م) Honorius II، وبطريرك بيت المقدس ستيفن Steven، أن يكون الرداء الأبيض هو لباس أعضائها. وكان عدد هؤلاء الأعضاء من الفرسان، حتى هذه السنة التاسعة من تأسيس هيئتهم، تسعة فقط. ولكن عددهم أخذ منذ ذلك الحين، يكثر بسرعة. وحملوا منذ عهد البابا يوجين الثالث، (1145 ـ 1153م)Eugène III شارة الصليب المصنوع من القماش الأحمر على أرديتهم البيضاء. ويقول وليم أسقف صور: بأن عددهم وصل نحو عام 1180م ـ الذي أخذ فيه هذا المؤرخ يؤلف كتابه القيم عن

أحداث الحركة الصليبية ـ ثلاثمائة فارس، بخلاف الأعضاء الآخرين الذين لا يتمتعون بحمل لقب فارس، ويعرفون عادة باسم الأعضاء الخدم، فقد كان عددهم لا يقدر. أما ثروتهم فقد ازدادت بشكل كبير، سواء في فلسطين[8] أو فيما وراء البحر، بحيث لا توجد دولة في العالم المسيحي كله، لا تتوفر لهم فيها أملاك واسعة على شكل عقارات أو أراض أو أموال نقدية، بحيث بلغت هذه الثروة مبلغ ثروة الملوك أنفسهم. هذا ويقرر أسقف صور بأن هؤلاء الأعضاء أصبحوا يعرفون منذ إقامتهم في القصر المجاور للمعبد باسم "إخوان جيش المعبد ".[9]

2 ـ أسباب معركة حطين:

لم يكن الداوية هم المتسببين مباشرة في الأحداث التي أدت إلى موقعة حطين، بل المتسبب هو المدعو أرناط،[10] Renaud de Chatillon أمير حصن الكرك والشوبك، الواقعين شرق الأردن. ففي أوائل عام 583هـ/1187م، هاجم أرناط أمام حصنه، قافلة مصرية كانت متجهة من القاهرة صوب دمشق، واستولى عليها. وعندما طلب منه السلطان صلاح الدين إرجاع القافلة رفض. كما رفض أيضا طلبا بذلك من ملك بيت المقدس جاي لوزجنان(1186 ـ 1192م) Guy de Lusignan. وكان أن عزم صلاح الدين على شن الحرب، التي جاءت قاضية على آمال الصليبيين في البقاء بالشام.[11] وقد شرع صلاح الدين يستعد لهذه الحرب، ويستنفر قواته من مصر وحلب والجزيرة وديار بكر. وخرج من دمشق يوم السبت مستهل محرم عام 583هـ/13 مارس 1187م، وتوجه نحو الجنوب، على رأس جيش جرار، ولما وصل إلى رأس الماء، الواقع شرق حطين، طلب من ابنه الملك الأفضل أن يقيم هناك في بعض العساكر، ليجتمع عنده باقي الجنود والإمدادات التي طلبها، على حين توجه هو إلى بصرى وخيم على قصر السلامة، ومكث ينتظر قدوم قافلة الحجيج الآتية من الحرمين، خوفا عليها من عدو الله أرناط.[12]

3- انهزام الداوية في معركة كريسون عام 1187م:

لما أحس أفصال المملكة الصليبية بخطورة الموقف، اجتمعوا بمدينة بيت المقدس يوم 15 محرم/27 مارس، وقرروا إرسال بعثة من مقدم الداوية جيرا رد دي ريدفورت Gérard de Ridefort ومقدم الإسبتارية[13] روجير دي مولان Roger des

Moulins، ورئيس أساقفة صور جوسياس Jossias، وأمير الرملة باليان الثاني Ballian II، وأمير صيدا رينو Renaud، إلى طبرية لإقناع الأمير ريموند الثالث Raymond III بالصلح مع الملك جاي لوزجنان، وبالخروج مع بقية الأفصال لصد صلاح الدين.(14) ولم يلبث المقدمان الكبيران لهيئتي الداوية والإسبتارية أن غادرا مدينة بيت المقدس، في 18 صفر/29 أفريل على رأس تسعين فارسا داويا، وعشرة من فرسان الإسبتارية للشروع في هذه المهمة، إلى أن يلحق بهما بقية أعضاء بعثة الصلح.(15) وقد وصلا في مساء اليوم الثاني إلى الفولة، حصن الداوية، القريب من طبرية. وقبل أن يستأنفا سيرهما في صباح 20 صفر/أول ماي، شاع بين الناس نبأ امتلاء المنطقة بجنود الملك الأفضل.(16)

وقد خرج المقدمان الداوي والإسبتاري للقائهم على رأس فرسانهما المائة، بالإضافة إلى أربعين فارسا، استعانا بهم من فرسان حامية الناصرة،(17) وعدد يتراوح بين ثلاثمائة وأربعمائة من المشاة، استعانا بهم من حامية مدينة الناصرة، عند وصولهما إلى هذه المدينة. وبينما كانت هذه القوى الصليبية تعبر التل، الواقع وراء الناصرة، في صبيحة 29 صفر 583هـ/10 ماي 1187م، شاهد أفرادها المسلمين يسقون خيولهم من عيون كريسون، القريبة من هذا التل.(18)

وقد هالهم كثرة أعداد هؤلاء المسلمين، ونصح روجير دي مولان مقدم الإسبتارية، ويعقوب ميلي، Jacques Mailly مارشال الداوية، بالارتداد. ولكن مقدم الداوية جيرارد دي ريدفورت أصر على القتال، وأمر فرسانه التسعين بالهجوم على المسلمين، فاضطر زملاؤه الآخرون إلى الدخول في المعركة، التي انتهت بمصرع جميع فرسان الداوية، ما عدا ثلاثة، من بينهم المقدم جيرارد دي ريدفورت، ومقدم الإسبتارية روجير دي مولان. أما فرسان الناصرة الأربعون، فقد وقعوا في الأسر.(19) كما وقعت في أسر المسلمين، النجدة الصليبية التي لم تلبث أن جاءت لمساعدة إخوانهم بعد انتهاء المعركة.(20)

وعندما وصل خبر هذا النصر للسلطان صلاح الدين، كان قد اطمأن على وصول الحجاج في آخر صفر 583هـ/11 ماي 1187م بسلام، وشرع في مهاجمة حصن الكرك والشوبك، وقطع ما حولهما من أشجار وزروع، إلى أن وصلت العساكر المصرية، التي يقودها ابنه الأفضل، والتي أصبح عدد جيش المسلمين بها،

اثني عشر ألف فارس، فضلا عن عدد كبير من القوات الإضافية والقوات غير النظامية، فاتجه بها حيث عسكر في الأقحوانة قرب طبرية.[21]

4 ـ الداوية ومعركة حطين:

وكان من الطبيعي أن تتظافر جميع القوى الصليبية في الشام، للوقوف صفا واحدا في مواجهة هذا الخطر. وقد ساعد على تكتلهم، نجاح مقدم الداوية، بعد أن نجا من مذبحة عيون كريسون، في إقناع ريموند الثالث أمير طرابلس، بالاشتراك على رأس قواته في الجيش الصليبي، الذي تم حشده يوم 23 ربيع الثاني/02 جويلية، بقيادة الملك جاي لوزجنان، في صفورية القربية من عكا.[22]

ومن المعروف أن هيئتي الداوية والإسبتارية قد أسهمتا في هذا الجيش بجل فرسانهما في الأرض المقدسة. كما بذل الداوية مساعدة إضافية للملك جاي، حيث سلموه نصيبهم من المال الذي أرسله حديثا ملك أنكلترا هنري الثاني(1154 ـ 1189م)Henri II ، مساعدة منه للهيئات العسكرية الدينية العاملة في فلسطين.[23]

وبقطع النظر عن تحركات كل من الجيشين الأيوبي والصليبي، وخططهما العسكرية، فلم يلبثا أن اشتبكا في معركة دارت رحاها في يوم السبت 25 ربيع الثاني/ 04 جويلية، بجوار جبل حطين غربي طبرية، وأسفرت عن هزيمة الصليبيين، ووقوع ملكهم جاي ومعظم أفصاله، وفي مقدمتهم أرناط أمير الكرك في الأسر. كما أسر مقدم الداوية جيرارد دي ريدفورت وجماعة من الإسبتارية.[24]

ولقد نفذ صلاح الدين حكم الإعدام في جميع فرسان الداوية والإسبتارية، البالغ عددهم مائتي فارس.[25] وخص هؤلاء دون غيرهم" لجعلهم من سفك دماء المسلمين عبادة ورهبانية يتقربون بها إلى الله ".[26] أما نائب مقدم الإسبتارية، واسمه وليم بوريل، William Borrel فقد أفلت من الوقوع في الأسر، وهرب إلى مدينة صور.[27]

5 ـ نتائج المعركة وسقوط حصون الداوية:

لقد استولى صلاح الدين خلال الشهور الثلاثة التي أعقبت معركة حطين، على أغلب حصون ومدن مملكة بيت المقدس، ولم يبق للمسيحيين فيها سوى صور وعسقلان وغزة وبعض قلاع معزولة، ثم المدينة المقدسة بيت المقدس.

وظهر صلاح الدين في 26 جمادى الثانية/فاتح سبتمبر، أمام عسقلان المملوكة للداوية، صحبة الملك جاي لوزجنان، ومقدم الداوية جيرارد دي ريدفورت. وقد طلب صلاح الدين استسلام عسقلان، في مقابل إطلاق سراح المقدم جيرارد دي ريدفورت، إلا أن سكان المدينة رفضوا ذلك، واستبسلوا في الدفاع عن قلعتهم، وسقط أميران من أمراء صلاح الدين، ولكنها أرغمت في النهاية على الإذعان في 29 جمادى الثانية/ 04 سبتمبر 1187م.

وقد أطاعت غزة بدورها، وهي من أملاك الداوية، المقدم جيرارد دي ريدفورت، وأذعنت لصلاح الدين، وكذا وذاك. بالإضافة إلى وساطة الملك جاي، أطلق صلاح الدين سراح المقدم الداوي جيرارد دي ريدفورت، أما الملك جاي نفسه، فقد بقي في الأسر عدة شهور أخرى.[28]

وسلمت لصلاح الدين يوم الجمعة 27 رجب/ 12 أكتوبر، مدينة بيت المقدس، واقتيد سكانها من الصليبيين على ثلاث دفعات، خلال أربعين يوما، إلى حدود إمارة طرابلس، ولم يبق لهم في مملكة بيت المقدس، بعد سقوط عاصمتها، سوى مدينة صور وستة حصون، من ضمنها حصن صفد الداوي.[29]

6 ـ دور الداوية في إفشال الحصار الذي ضرب على مدينة صور في شهر رمضان عام 583هـ/ ديسمبر 1187م:

وكان صلاح الدين قد عهد إلى ابن أخيه، الملك المظفر تقي الدين، بعد بضعة أيام من معركة حطين، بقطع الميرة عن مدينة صور لمضايقتها. ولما فرغ السلطان من إقرار الوضع في العاصمة بيت المقدس، انتقل بنفسه إلى مدينة صور، وضرب عليها الحصار من ناحية البر، على حين قام أسطول مصري، استدعاه صلاح الدين من ميناء عكا، بحصارها من جهة البحر،[30] وبذلك دارت معركة مساء يوم 28 رمضان/29 أو 30 ديسمبر،[31] وشاركت فيها سفن الداوية والإسبتارية بالدور الرئيسي.[32] وقد فقد المصريون في هذه المعركة البحرية، خمس سفن بمقدميها، وست مراكب أخرى.[33] وعندئذ، صرف صلاح الدين بقية سفنه إلى ميناء بيروت،[34] ورفع الحصار البري عن المدينة في آخر شوال 583هـ/ فاتح جانفي 1188م.[35]

7 ـ فشل الداوية للتصدي لهجمات السلطان صلاح الدين عام 584هـ/1188م:

وصل السلطان صلاح الدين، في شهر ربيع الثاني 584هـ/جويلية 1188م، إلى حصن أنطرطوس التابع للداوية، واستولى عليه بصعوبة كبيرة، بسبب استبسال حاميته من الداوية، وعلى رأسها مقدمهم جيرارد دي ريدفورت، الذي كان قد لجأ إليه، بعد أن أطلق صلاح الدين سراحه من أسر حطين. ويذكر أبو شامة بأن السلطان صلاح الدين، أسر من في الحصن من الداوية، وغنم الأموال الكثيرة.(36) وبمقتضى هذا المؤرخ العربي أيضا، عرفنا بأن السلطان صلاح الدين، بعد أن تم له الاستيلاء على حصن أنطرطوس، توجه إلى حصن داوي آخر، يقع إلى الشمال من مدينة أنطاكية، وبالقرب منه، هو حصن دربساك، فوصل إليه يوم الجمعة 19 رجب/ 13 سبتمبر، بعد أن اكتسح كل الحصون الصليبية الأخرى، التي مر عليها في طريقه. وكان حصن دربساك قويا، ودافعت عنه حاميته من فرسان الداوية بعناد، ولكنها اضطرت في النهاية إلى الاستسلام.(37) غير أنه لم يخبرنا بشيء عن مصير المقدم جيرارد، الذي نرجح أنه تمكن من الهرب، حيث ثبت أنه كان مشتركا في عام 585هـ/1189م، في جيش صليبي يحاصر عكا. وتوفي أثناء الحصار، وخلفه المدعو روبيرت صالبي، Robert Salebé أحد أفصال ملك أنجلترا.(38)

وبعد أقل من شهر واحد، ـ أي في 02 شعبان / أواخر سبتمبر ـ استولى صلاح الدين على حصن بغراس، الذي كان ملكا للداوية أيضا، وبذلك استفاد المسلمون من موقع هام على الطريق بين أنطاكية وإمارة قيليقية الأرمينية.(39) وقد اكتملت الفائدة، عندما استولى صلاح الدين في 14 شوال من نفس العام/06 ديسمبر، على حصن صفد الداوي، وهو أقوى حصون الداوية على وجه الإطلاق في بلاد الشام.(40)

وليس من شك، في أن جميع من نجوا من القتل أو من الوقوع في الأسر من فرسان الداوية، الذين كانوا يشكلون حاميات هذه الحصون المملوكة لهم، لجأوا ـ شأنهم شأن سائر الصليبيين الذين أفلتوا من يد صلاح الدين منذ حطين ـ إلى مدينة صور، وتحصنوا فيها، واشتركوا جميعا في الدفاع عنها، حتى عجز السلطان عن فتحها.(41)

ومن المعروف أن جيشا صليبيا لم يلبث أن وصل إلى مدينة صور، في شهر رجب عام 585هـ/أوت 1189م، بقيادة الملك جاي لوزجنان والأمير كونراد دي مونتفرات،[42] Conrad de Monteferat زوج ملكة بيت المقدس وقبرص، إيزابيل دانجو(1192–1205م) Isabelle d'Anjou فتقوى به الصليبيون، وخرجت جموعهم ـ ومنهم الداوية بطبيعة الحال ـ بقيادة جاي لوزجنان، قاصدة مدينة عكا، وفرضت حولها حصارا من ناحية البر، على حين قامت سفنهم بحصارها من ناحية البحر، غير أن قوات صلاح الدين لم تلبث أن وصلت، وقامت بفرض حصار قوي حول قواتهم الموجودة أمام عكا من ناحية البر.[43] وكان أن شن جيش التحالف الصليبي هجوما عاما على قوات صلاح الدين، كانت نتيجته أنهم خسروا ما بين خمسة آلاف وعشرة آلاف قتيل، مقابل ألف وخمسمائة شهيد مسلم.[44]

ولقد أظهرت قوات صلاح الدين خلال سنتي 585–586هـ/1189–1190م، تفوقا واضحا في مناوشاتها ضد الصليبيين في البر والبحر.[45] واضطر الأسطول المسيحي في شتاء العام التالي، إلى التقهقر بعيدا عن شواطئ عكا، بسبب سوء حالة البحر، مما سمح للسلطان بتموين المدينة وتغيير حاميتها.[46] وفي نفس الوقت، أصبح من المتعذر على الصليبيين الاتصال بمراكز تموينهم في أوربا، فاختل نظامهم وانتشر فيهم المرض،[47] وتكاثرت أمواتهم.[48] وأصبح واضحا أن كارثة محققة تنتظرهم على يد صلاح الدين، بعد انقضاء فصل الشتاء.[49]

8 ـ الداوية والحملة الصليبية الثالثة وسقوط عكا عام 586هـ/1190م:

أرسل الصليبيون عقب هزيمتهم في حطين، الوفود إلى أمراء غرب أوربا، يحرضونهم على تجهيز حملة صليبية من أجل استرجاع بيت المقدس.[50] وقد استجاب الأوربيون لهذه الوفود، وجاءوا بقوات ضخمة، بقيادة الملك الفرنسي فيليب الأول أغسطس (1180 ـ 1223م) Philippe I August، والملك الأنجليزي ريتشارد قلب الأسد(1189 ـ 1199م)Richard Cœur de Lion، وضربوا حصارا محكما على مدينة عكا، أجبر السلطان صلاح الدين على التقهقر، وسقطت المدينة بأيديهم، في شهر جمادى الثانية عام 587هـ/جوان1191م.[51] غير أن ريتشارد قلب الأسد، قد جرح في أثناء مناوشات قامت بها هيئة الداوية، المتحالفة معه ضد المسلمين، حينما كان

الجيش الصليبي يزحف نحو بيت المقدس،[52]واستطاعوا أن يهزموا صلاح الدين، في شمال أرسوف، في رمضان/ سبتمبر، وقتل سبعة آلاف من جنده، مقابل سبعمائة من جيش أعدائه،[53] وتمكن الجيش الصليبي بعد ذلك، من احتلال مدينة يافا، والتغلب على صلاح الدين، الذي كاد أن يأسر ريتشارد قلب الأسد.[54] وقد خرج ريتشارد قلب الأسد، بالتحالف مع الداوية من يافا، وتوجهوا جميعا نحو بيت المقدس، في شوال/أكتوبر، واستولوا على يازور واللد والرملة وبيت النوبة والنطرون وما حولها من القرى،[55] وأضحى الجيش الصليبي قريبا من بيت المقدس. إلا أنه قد تأثر من جراء الجو المكفهر، وصار من المتعذر عليه فرض الحصار على المدينة المقدسة. وتمكن مقدما هيئتي الداوية والإسبتارية وأمراء الأرض المقدسة، أن يقنعوا ريتشارد بالعودة إلى الساحل، وانتظار إمدادات جديدة من أوربا. وبذلك انسحب الجيش إلى مدينة عسقلان،[56] وشرعوا في إعادة تجديد حصونها.[57] وتمكن الداوية بالتحالف مع ريتشارد، من استرجاع حصنهم الداروم، القريب من عسقلان،[58] وقطعوا في 2 محرم 588هـ/19 جانفي 1192م، تل الصافية والنطرون، ووصلوا إلى بيت النوبة، ينتظرون تعزيزات تصلهم من عكا،[59] غير أنهم اشتبكوا في 8 محرم/25 جانفي مع قوات صلاح الدين، وتكبدوا خسائر كبيرة.[60] وبعد خمسة أيام من ذلك، خرجوا من يافا في قافلة ضخمة، هاجمتها قوات صلاح الدين عند الرملة، وحلت بهم الهزيمة.[61]وتوالت هجمات القوات الأيوبية عليهم في طول الساحل، من عكا حتى عسقلان، وهم يتلقون الهزائم الجسيمة.[62] ولذلك انتهز مقدما الداوية والإسبتارية وأمراء الأرض المقدسة هذه الفرصة أيضا، وضغطوا من جديد على ريتشارد، من أجل العدول عن خطة غزو بيت المقدس، وأوضحوا له بأن أية محاولة من هذا القبيل سوف تبوء بالفشل.[63] ولذلك تراجع قلب الأسد عن احتلال بيت المقدس، وعاد أدراجه إلى الرملة، ثم دخل في مفاوضات مع صلاح الدين انتهت بالفشل، لأن كلا منهما يرغب في التمسك بمدينة عسقلان،[64] ولذلك انسحب ريتشارد إلى عكا.[65] وجاء الداوية والإسبتارية صحبة ريتشارد من عكا، من أجل إنقاذ يافا، التي تعرضت إلى هجوم صلاح الدين،[66] ولكن قوات الهيئتين فضلت السير في طريق الساحل، واشتبكت مع فرقة إسلامية قوية في ميناء قيسارية، كان يقودها أحد أبناء شيخ الجبل، فارتد الداوية والإسبتارية على أعقابهم.[67]

وهكذا، فقد اتفق الطرفان الإسلامي والمسيحي في 21 شعبان 588هـ/02 سبتمبر 1192م، على عقد صلح في مدينة الرملة، مدته ثلاث سنوات وثلاثة أشهر.(68) وبعد ذلك، غادر ريتشارد بلاد الشام، عائدا إلى بلاده.(69)

وكان من نتيجة الاتفاقية أن ساد الهدوء النسبي بين الفريقين، حيث أن صلاح الدين توفي يوم الأربعاء 27 صفر 589هـ/ 03 مارس 1193م، وبقي أولاده وأخوه العادل يتنازعون الحكم في الدولة الأيوبية. أما الأمراء الصليبيون، فانهمكوا من جهتهم في مناوشاتهم الخاصة، زيادة على فقرهم وحبهم في العيش بسلام مع جيرانهم المسلمين، بعد أن أنهكت الحرب مع صلاح الدين قواهم.(70)

الخاتمة

وهكذا، يتضح لنا أن هيئة فرسان المعبد أو الداوية، قامت بدور أساسي في جميع الحروب الصليبية التي صادفت وجودها في بلاد الشام، مما جعل الملوك والأمراء الأوربيين يعطفون عليها، ويغدقون عليها الأموال والحصون والمعاقل والمدن. وأضحت تشكل دولة داخل دولة، حيث كانت الهيئة لا تخضع إلا لسلطة البابا وحده.

وقد أدت جسارة هيئة الداوية الكبيرة بأعضائها، إلى التهور والاغترار بأنفسهم، مما جعلهم يقعون في أسر صلاح الدين عام 583هـ/1187م، في موقعة كريسون، التي كانت بادرة خير على المسلمين، ومهدت لهم الانتصار في المعركة الفاصلة، ألا وهي معركة حطين. وبكلمة وجيزة، فإن شجاعتهم والروح الانتقامية التي كانوا يتميزون بها تجاه المسلمين، أدت بصلاح الدين إلى تنفيذ حكم الإعدام في كل أسراهم، الذين وقعوا بين يديه خلال هذه المعركة.

ـ الهوامش:

1- هو فارس هرم، ينتمي إلى أسرة كونتات شومبانيا، الواقعة شرق باريس. ولد خلال عام 1070م، ثم قام بتأسيس هيئة فرسان المعبد، وتوفي عام 1136م بالأرض المقدسة.
انظر: Michaud (M.) : Biographie universelle , T. XIX . Paris , P. 138.

2- انظر: Regine Pernoud:Les Templiers , Que sais-je ? Paris ,1975, P.5.

3- سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية ج 1، القاهرة، 1963، ص 500.

4- تلقبوا في أول الأمر بفرسان المسيح، (Les Chevaliers du Christ) ثم بفرسان المعبد. وأطلق عليهم العرب اسم الداوية أو الديوية، نسبة للنبي داود، حاكم فلسطين والأردن،

والمولود ببيت لحم بفلسطين في نحو عام 1085 ق.م، ومات بأورشليم (بيت المقدس) في نحو عام 1015 ق.م. انظر سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق ج 1 ص542 ؛ البستاني: دائرة المعارف م. 7 ص574 ؛ محمد العروسي المطوي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب. بيروت، 1982، ص96.

5- وليم الصوري Guillaume de Tyr، مؤرخ الحروب الصليبية. ولد في نحو عام 1150م ببلاد الشام. تولى رئاسة أسقفية مدينة صور بالشام، وخلف حولية تؤرخ للحركة الصليبية في الشرق اللاتيني، خلال القرن 12م. مات عام 1185م بمدينة روما.
انظر: Le Petit Larousse illustré . Paris , 2008 , P. 1375.

6- انظر: Guillaume de Tyr : L' Estoire de Eracles empereur et la conqueste de la Terre d'Outremer , dans Rec. Hist. Occ. , T. I , Paris , 1844 , P. 521.

7- يتكون قانون الهيئة من 65 مادة. ويلاحظ أن هذا القانون قد عرف تعديلا فيما بعد، اشترك في تحريره بطريق بيت المقدس المدعو ستيفن دي شارتر(1128-1230م). Steven de Chartres انظر: Grande encyclopédie , T. 30 , P. 1069 ; Régine : OP.CIT. , P. 7.

8- أهم الحصون والمدن التي كان يملكها الداوية في الشام ومصر: أنطرطوس وطورون والعريمة وصفد وصافيتا وغزة وعسقلان والدارون. انظر: Chalandon(F.):Histoire de la première Croisade. Paris , 1925 , P.333.

9- انظر: Guillaume de Tyr : OP.CIT. ,T. I , P. 521 ; Grousset (R.) : Histoire des Croisades , T. I , Paris , 1936 , P. 542.

10- اسمه الحقيقي رينود دي شاتيون Renaud de Chatillon . اشتهر عند العرب باسم أرناط، وهو فارس شاب من أصل فرنسي. وفد إلى بلاد الشام، عقب الحملة الصليبية الثانية عام 1146م، غير أنه تخلف في فلسطين، بعد فشل الحملة وعودة رجالها إلى الغرب. تولى إمارة الكرك والشوبك الواقعة شرق الأردن، وكاد أن يستولي على الحرمين الشريفين. أسره صلاح الدين عام 1187م، ونفذ فيه حكم الإعدام بيده، حيث فصل جسده عن رقبته في خيمته. انظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، ج 11. بيروت، 1966، ص 536 ؛ أبو شامة: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، ج2. القاهرة، 1962، ص 85.

11- سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق ج 2 ص797.

12- ابن الأثير: المصدر السابق ج11 ص529-530 ؛ المقريزي: السلوك ج 1. القاهرة، 1956، ص 93 ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق ج 2 ص800.

13- الإسبتارية: هم جماعة من الرهبان، سهروا على رعاية فقراء حجاج المسيحيين ومرضاهم، في مستشفى أقيم لهذا الغرض بمدينة بيت المقدس، أمام كنيسة القيامة، قبيل الحروب الصليبية. ثم تحولت هذه الجماعة إلى هيئة حربية، أصبحت السند الأقوى للصليبيين، فضلا عن استمرارها في المحافظة على وظيفتها الدينية والاجتماعية في مؤسسات خاصة، قامت بتشييدها في مختلف أنحاء الممتلكات الصليبية بالشام وأوربا.انظر: سامي سلطان: الإسبتارية في رودس. رسالة دكتوراه، قدمت لجامعة القاهرة عام 1975 غير منشورة، ص13.

14- انظر: Guillaume de Tyr : OP.CIT. ,T. II , PP. 36-37.

15- انظر: Guillaume de Tyr : OP.CIT. , T. II , P. 39.

16- ابن واصل: مفرج الكروب، ج 2. القاهرة، 1953، ص187.

17- سامي سلطان: المرجع السابق ص52. ارجع أيضا إلى:
Delaville Leroulx: Les Hospitaliers en Terre Sainte et à Chypre. Paris, 1904 , PP.95-96.

18- انظر: Grousset (R.) : OP.CIT.,T.II, P.783.

19- رنسيمان ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية ج 2. بيروت، 1967، ص731-732.

20- سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق ج 2 ص 803.

21- الباز العريني: الأيوبيون. طبعة دار النهضة العربية، ص81.

22- ابن الأثير: المصدر السابق ج 11، ص 531 ؛ أبو شامة: المصدر السابق، ج2. ص 26 ؛ رنسيمان: المرجع السابق ج 2 ص 734.

23- رنسيمان: المرجع السابق ج 2 ص 734.

24- ابن الأثير: المصدر السابق ج 11، ص 535-537 ؛ أبو شامة: المصدر السابق، ج2، ص 270-271 ؛ ابن واصل: المصدر السابق ج 2. ص188-195. ارجع أيضا إلى:
Guillaume de Tyr : OP.CIT. ,T. II , PP. 66-110.

25- محمد عمارة: معارك العرب ضد الغزاة. طبعة المؤسسة العربية، بيروت، ص 16.

26- أبو شامة: المصدر السابق، ج2، ص 277.

27- نفسه. ارجع أيضا إلى: Guillaume de Tyr : OP.CIT. , T. II , PP. 64-65.

28- ابن واصل: المصدر السابق ج 2. ص210 ؛ عماد الدين الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي. الدار القومية للطباعة والنشر، طبعة 1965، ص112؛ رنسيمان: المرجع السابق ج 2 ص 743-747.

29- ابن الجوزي: مرآة الزمان ج2. طبعة الهند،1951، ص397 ؛ عماد الدين الأصفهاني: المصدر السابق ص116 ؛ سامي سلطان: المرجع السابق ص56.

30- ابن واصل: المصدر السابق ج 2. ص208-209 ، 242-244 ؛ ابن الأثير: المصدر السابق ج 11، ص 543-544.

31- ابن شداد: النوادر السلطانية. طبعة مصر، 1317، ص67. ارجع أيضا إلى:
Grousset (R) OP.CIT. ,T.II , P. 823.

32- سامي سلطان: المرجع السابق ص58.

33- ابن واصل: المصدر السابق ج 2. ص243-244. ارجع أيضا إلى:
Delaville Leroulx: OP.CIT. , P. 99.

34- ابن واصل: المصدر السابق ج 2. ص 245 ؛ ابن الأثير:المصدر السابق ج 11، ص 543 ؛ سامي سلطان: المرجع السابق ص58.

35- ابن واصل: المصدر السابق ج 2 ص 246 ؛ ابن الأثير:المصدر السابق ج 11، ص 544 ؛ سامي سلطان: المرجع السابق ص58.

36- أبو شامة: المصدر السابق. ص353 في (Rec.Hist.Orient.,T.IV)

37- أبو شامة: المصدر السابق، ص 375 في (Rec.Hist.Orient.,T.IV) ؛ عماد الدين الأصفهاني: المصدر السابق ص255.

38- انظر: Regine Pernoud : OP.CIT., P. 62.

39- ابن شداد: المصدر السابق ص71 ؛ ابن الأثير: المصدر السابق ج 12، ص 18.

40- سامي سلطان: المرجع السابق ص60.
41- ابن الأثير: المصدر السابق ج 11، ص 555-556.
42- استولى على مدينة صور، وصار يحكمها. ثم تزوج بإيزابيل دانجو، ملكة بيت المقدس وقبرص(1192-1205م)، ابنة أموري الأول ملك بيت المقدس. اغتيل قبل تنصيبه ملكا على بيت المقدس. انظر: .Petit Robert II , P. 451
43- ابن شداد: المصدر السابق ص88 ؛ أحمد الشقيري: معارك العرب ص 192.
44- سامي سلطان: المرجع السابق ص61-62. ارجع أيضا إلى:
Delaville Leroulx: OP.CIT. , P. 103.
45- ابن واصل: المصدر السابق ج 2. ص 312-317.
46- أبو شامة: المصدر السابق، ص41-42 في (Rec.Hist.Orient.,T.IV)
47- انظر: .Delaville Leroulx : OP.CIT. , P. 107
48- أبو شامة: المصدر السابق، ج 2 ص169.
49- سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق ج 2 ص 863.
50- الباز العريني: المرجع السابق ص 100.
51- أبو الفداء: المختصر ج 3. طبعة بيروت، 1960، ص79 ؛ الباز العريني: المرجع السابق ص 101.
52- ابن شداد: المصدر السابق ص177.
53- انظر: .Delaville Leroulx : OP.CIT. , PP. 110-111
54- ابن الأثير: المصدر السابق ج 12، ص 34 ؛ أحمد الشقيري: المرجع السابق ص238.
55- سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق ج 2 ص879.
56- انظر: .Delaville Leroulx : OP.CIT. , PP. 112-113
57- ابن الأثير: كامل التواريخ ص 57 في (Rec.Hist.Orient. ,T. II)
58- ابن واصل: المصدر السابق ج 2 ص 382 ؛ سامي سلطان: المرجع السابق ص67.
59- ابن الأثير: كامل التواريخ ص 57 في (Rec.Hist.Orient.,T.II) ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق ج 2 ص889.
60- أبو شامة: المصدر السابق، ج 2 ، ص197.
61- ابن واصل: المصدر السابق ج 2 ص382.
62- ابن شداد: المصدر السابق ص211.
63- سامي سلطان: المرجع السابق ص67.
64- سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق ج 2 ص895.
65- ابن الأثير: كامل التواريخ ص 63 في(Rec.Hist.Orient.,T.II)
66- سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق ج 2 ص895-896.
67- سامي سلطان: المرجع السابق ص68.
68- أبو شامة: المصدر السابق، ج 2 ص203 ؛ ابن واصل: المصدر السابق ج 2 ص402-403.
69- سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق ج 2 ص901 .
70- نفسه ج 2 ص902-917 . ارجع أيضا إلى:
.Delaville Leroulx : OP.CIT. , PP. 119-120